رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

منارات
manarat

العدد (4447) السنة السادسة عشرة - الأربعاء (12) حزيران 2019

WWW. almadasupplements.com

آسيا جبار

آسيا جبار.. انتظرَت نوبل طويلاً وغادرَت العالم بصمت

اعداد / منارات

الكاتبة الروائية والشاعرة الجزائرية آسيا جبار التي مثّلت أيقونة أدبية في مواجهة الاستعمار الفرنسي والنضال من أجل التحرير والاستقلال. اسم آسيا جبار الذي طالما صنع الحدث لكونها "مرشحة دائمة" لنيل جائزة نوبل للآداب دون أن تفوز بها.. عرفها العالم باسم "آسيا جبار"، وكثير من الناس لا يعلم أن ذلك ما هو إلا اسمها الادبي، وهي التي نشأت في بيئة تحتم على الرجال والنساء اعتماد أكثر من اسم مثلما فعل قادة الثورة التحريرية من جيلها.

اسمها الأصلي "فاطمة الزهراء إيمالايان"، ولدت في بلدة شرشال على ساحل البحر الأبيض المتوسط غربي الجزائر العاصمة، المنطقة التي احتضنت الموريسكيين الهاربين من محاكم التفتيش الإسبانية بعد سقوط الأندلس نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

برزت جبار مبكرا عندما نشرت –وهي دون العشرين من عمرها– أول أعمالها السردية "العطش" عام ١٩٥٣، لتتبعها برواية "نافذة الصبر" عام ١٩٥٧ في أول أحداث الثورة التحريرية.

كتبت جبّار روايتها الأولى "العطش" (١٩٥٣) وأتبعتها برواية "نافذة الصبر" (١٩٥٧)، كما كتبت رواية مشتركة مع زوجها الأول أحمد ولد رويس بعنوان "أحمر لون الفجر".

ولكن الراوية التي لفتت إليها الأنظار ليس فقط ككاتبة بل كمحققة في التاريخ وصاحبة منظور نسوي واضح أيضاً، ومسائلة عتيدة للمورث الديني والاجتماعي، هي رواية "بعيداً عن المدينة" التي كان موضوعها "العشرية السوداء" التي عاشتها الجزائر في التسعينيات.

تناولت جبّار هذه الحقبة الدموية من تاريخ بلادها من زاوية محددة وهي موقع المرأة الجزائرية في كل هذه الأحداث وما تعرضت له خلالها. أعملت صاحبة "ظلّ السلطانة" قلمها في هذه الرواية لتفكيك خطاب بعض النصوص التاريخية التي فسرت النصوص الإسلامية المقدسة مثل "تاريخ الطبري" و"طبقات ابن سعد" و"سيرة ابن هشام". ومن خلال استحضار شخصيات نسائية تاريخية، مثّلت جبّار على قدرة المؤرخ والموثق أن يقصي المرأة من مسار الأحداث والمنعطفات الكبرى.

وعن تجربتها هذه قالت في إحدى حواراتها "لقد غصتُ في تفكيك تلك النصوص كلمة كلمة، فصلاً بعد فصل، كنت بحاجة إلى سماع لغتي الأم في إيقاعها وتحفظها وفي ثغراتها أيضاً".

خصّت جبّار معظم كتاباتها وهواجسها للمرأة الجزائرية، وكانت ترى في ذلك شيئاً من منح الصمت حنجرة ليصرخ بها، هي التي كتبت في عملها "نساء الجزائر في شقتهن" تصف نساء بلادها: "عالم من النساء، حيث لا تحدث ضوضاء من الهمسات، من الشكاوى المفقودة، من رومانسية غائبة، يصبح هذا العالم فجأة بائساً منطوياً، وتنكشف الحقيقة من دون مكياج من دون ارتداد نحو قيم الماضي: الصوت مكتوم حقاً".

لم تكتف جبّار، أستاذة الأدب الفرنكفوني في جامعة نيويورك وعضو الأكاديمية الفرنسية، بالكتابة؛ فتقدمت بخطواتها نحو الإخراج السينمائي، وحاز فيلمها "نوبة نساء جبل شنوة" على جائزة النقد العالمي في مهرجان البندقية للعام ١٩٧٩، كما حصل فيلمها الثاني "زردة أو أغاني النسيان" على جائزة أفضل فيلم وثائقي في مهرجان برلين السينمائي ١٩٨٢. لم تخرج جبّار سوى هذين الفيلمين الوثائقيين ولكنها اتجهت أيضاً لكتابة النصوص المسرحية والتي لم تكن بنجاح رواياتها.

عن علاقتها بالكتابة كتبت جبّار في أحد نصوصها: "أكتب ضدّ الموت، أكتب ضدّ النسيان. أكتب على أمل أن أترك أثراً ما، ظلاً، نقشاً في الرمل المتحرّك، في الرماد الذي يطير وفي الصحراء التي تصعد". ورغم أن جبّار صاحبة "لا مكان في بيت أبي" قد تُرجمت إلى ثلاثين لغة في العالم، إلا أنها لم تقدم إلى لغتها العربية الأم، وقد رفضت المحاولة التي قدّمت لها لتعريب "بعيداً عن المدينة" لأنها رأتها بعيدة عن روح النص. ومازال أدب جبّار بالنسبة للقارئ بالعربية مجهولاً في انتظار أن يبادر المترجمون.

توجهت آسيا جبار لدراسة التاريخ، وتأكد فيما بعد من خلال رواياتها «بعيدا عن المدينة المنورة» والجزائريات في شققهن» و«أطفال العالم الجديد» و«ليالي ستراسبورغ» و«الحب الفانتازيا» بأن التاريخ هو المتكأ الأساس لجميع كتابات آسيا جبار، التاريخ الجزائري والعربي الإسلامي والمتوسطي حاضر بكثافة في جميع رواياتها. رواياتها هي رواية المعرفة ولكنها معرفة في قالب «شهوة الحكاية» والسرد والإمتاع..

كانت آسيا جبار تبحث في نفسها عن كثير من الطرق والمسارات للتعبير، كانت المتعدد في الواحدة، فهي روائية وشاعرة وقصاصة ومسرحية وهي أيضا سينمائية، لم يكن ذهابها إلى السينما من باب الصرعة بل كان باب البحث عن صوت جديد من خلال الصورة، فأفلامها حصدت كثيرا من الجوائز الدولية المحترمة، وتدرس في الجامعات وتعرف إقبالا كبيرا لموضوعاتها المرتبطة أصلا بالمرأة في كفاحها اليومي من أجل شحذ وعيها الشقي ومن أجل صناعة مكان لها تحت الشمس في مجتمع يهيمن فيه الذكر هيمنة مشرعة له من خلال ثقافة «جنسوية» عنصرية.

تكتب آسيا جبار بلغة فرنسية شفافة، ما بين اللمسة الشعرية والعين التاريخية، تكتب بسرد ينتمي إلى الشرق ولكنه يقف وسط معمعة الواقع وحراسة التاريخ، مع كل ذلك فكتاباتها لم تسقط في الوظيفية المبتذلة. تعتبر آسيا جبار أول كاتبة عربية وإفريقية تدخل محراب الأكاديمية الفرنسية العام ٢٠٠٥، دخلتها بقوة كتبها، وبما أحدثته في اللغة الفرنسية من تجديد ومن تحريك، وأيضا للرسالة السامية التي تحملها رواياتها الداعية إلى السلام والعدل والدفاع عن حقوق المرأة في العالم الثالث وفي العالم الإسلامي بشكل خاص، من هنا فآسيا جبار فخر المثقف العربي والمغاربي.

لعدة مواسم على التوالي، ومع كل موعد الإعلان عن الأسماء المرشحة لأكبر جائزة أدبية عالمية وتعني بها جائزة نوبل للآداب، يوضع اسم آسيا جبار ضمن القوائم المنتظرة أو المتوقعة لنيل هذه الجائزة، ولعل آسيا جبار إلى جانب محمد ديب (توفي العام ٢٠٠٣) هما أكثر الكتاب المغاربيين اجماعا في النقد ولدى القراء على أهليتهما لجائزة نوبل للآداب.

الأعمال الأدبية لآسيا جبار

× La Soif، roman ١٩٥٧)) العطش (رواية)
× Les Impatients، roman ١٩٥٨)) القلقون (رواية)
× Les Enfants du Nouveau Monde، roman ١٩٦٢)) أطفال العالم الجديد (رواية)
× Les Alouettes naïves،) roman ١٩٦٧) القبرات الساذجات (رواية)
× Poèmes pour l›Algérie) heureuse، poésie ١٩٦٩) قصائد للجزائر السعيدة (شعر)
× Rouge l›aube، théâtre ١٩٦٩))
× Femmes d›Alger dans leur) appartement، nouvelles ١٩٨٠) نساء الجزائر في شققهن (قصص)
× L›Amour، lafantasia، roman ١٩٨٥)) الحب، الفانتازيا
× Ombre sultane، roman ١٩٨٧)) الظل السلطان(رواية)
× Loin de Médine، roman ١٩٩١)) بعيدا عن المدينة المنورة (رواية)
× Vaste est la prison، roman) ١٩٩٥) واسع هو السجن (رواية)

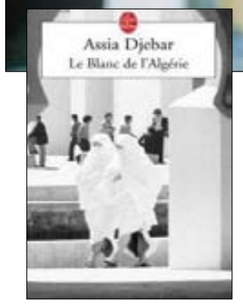

× Le Blanc de l›Algérie، récit) ١٩٩٦) أبيض الجزائر (قصة)
× Ces voix qui m›assiègent:) En marge de ma francophonie، essai (١٩٩٩) هذه الأصوات التي تحاصرني : على هامش فرنكفونيتي (دراسة)
× La Femme sans sépulture، roman ٢٠٠٢)) مرأة بدون قبر (رواية)
× La Disparition de la langue française، roman ٢٠٠٣)) اندثار اللغة الفرنسية (رواية)
× Nulle part dans la maison) de mon père، roman (٢٠٠٧) لا مكان في بيت أبي (رواية)

أفلام:

× La Nouba des femmes du Mont Chenoua ١٩٧٨)) نوبة نساء جبل شنوة
× La Zerda ou les chants de) l›oubli (١٩٨٢) الوليمة أو أناشيد النسيان

آسـيا جبار أول عربية تدخل مؤسسة الخالدين الفرنسية

جابر بكر

أي النساء هي؟ هل كانت المرأة المتكئة؟ أم تلك التي تجلس أمام "الشيشة"؟ أم هي تلك الخادمة التي ترفع الستائر الثقيلة؟ أم هي ضميرهن المستتر؟ هل دخلت لوحة "نساء الجزائر في مخدعهن" للفنان الأوروبي "أوجين ديلاكروا" أم أدخلت لوحته عالم النساء الجزائريات؟ لماذا هاجرت من بلادها وهي التي دافعت عنها بقلمها؟ لماذا طلبت دفن جسدها في بلادها وهي التي تركتها؟ لماذا لم تغب بين الجموع وتغير انتماءها كما تغير اسمها؟ وتغير ثقافتها كما أجبرت على تغير لغة كتاباتها؟ لماذا لم تترك وراءها كل ذلك الألم وترحل في شوارع باريس؟ متخلصة من عباءة القهر والظلم اللذين أحاطا بالمرأة العربية ولا يزالان إلى اليوم، لماذا لم ترم حزنها بعيدا وتستسلم للفرح؟

فاطمة الزهراء

هي الكاتبة الجزائرية الفرنسية آسيا جبار، أو كما كان اسمها يوم ميلادها فاطمة الزهراء املحاين، سنرحل معها بحثا عن إجابات لتلك الأسئلة الكثيرة، نتعثر قليلا، فلم تترجم الراحلة جيدا بعد إلى العربية، رغم أن كتاباتها ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة، ورغم بعدها أو إبعادها عن اللغة العربية لم تنكر جبار عربيتها فعبرت عنها بفرنسية دفعتها إلى أن تكون في مؤسسة الخالدين الفرنكفونية أي "أكاديمية اللغة الفرنسية" التي دخلتها عام ٢٠٠٥، لتكون أول عربية تدخل هذه المؤسسة وخامسة امرأة تكسر ذكوريتها، رغم أنها تَرجمت دماء شعبها باللغة الفرنسية في روايات وقصص عن تضحياتهم ومعاناتهم من الاستعمار الفرنسي، فدخلت تلك المؤسسة كجزائرية مضمخة بدم شهداء حرب التحرير، الذين تعتبر نفسها "وارثة" لهم، ولم تكن جبار الأولى في هذه فقط، بل كانت أول امرأة جزائرية تنتسب إلى دار المعلمين في باريس عام ١٩٥٥، وأول أستاذة جامعية في الجزائر في قسم التاريخ والآداب ما بعد الاستقلال. هنا ندرك أي النساء هي، هي المرأة التي لم تلد طفلا، إلا أنها ولدت بلادا بلون الشمس في عاصمة الأنوار، هي المرأة الجزائرية التي حملت ذخيرة الحرية من بلاد الشهداء ودافعت عنها في أرض خصومها، ومن ثم حملت ذخيرة حربها النسوية ضد الظلام لتبقى أعواما طوالا تنكر التمييز وتدعو إلى حرية المرأة، إذا هي ليست تلك المرأة المتكئة أمام الشيشة بل هي المرأة الحاملة لقلمها سلاحا في وجه الظلم، قلم حمل اسمها إلى لائحة المرشحين لجائزة نوبل عام ٢٠٠٩، وجعلها أول كاتبة عربية تفوز بجائزة السلام عام ٢٠٠٢، الجائزة التي تمنحها جمعية الناشرين وأصحاب المكتبات الألمانية، كما حظيت بالتكريم في محافل دولية عديدة، ولكنها لم تعرف عربيا إلا قليلا.

موت الفرنسية

لم تتردد في نقد كل شيء، حتى اللغة التي يكتب بها، حيث أطلقت على إحدى رواياتها عنوان "اختفاء اللغة الفرنسية"، رواية لا تتوانى عن رثاء لغة الاستعمار اللغة التي درست من خلالها وكتبت من خلالها، اللغة التي كانت سمة مثقفي الجزائر طوال سنوات وربما سمة بعضهم إلى اليوم، لغة حملتها جبار الغربة والحزن المشرقي والشعور بالاغتراب والبعد والشوق والفرح الذي ينطق الدمع بشكله ولونه، نعم هو فرح المشرقيين المبعدين عن بلادهم، كما حال الكثير من مثقفي العالم العربي اليوم وبالذات بلاد الثورات التي أحالها الظُلّام سجونا ومقاصل لا حدود لها ولا دماء تروي نهمهم، بلاد باتت بوابات موت معلنة تفتح لتضم الأجساد كما ضمت أرض الجزائر مؤخرا جسد جبار، ليُكتب على لوحة القبر، هنا ترقد فاطمة الزهراء ابنة الجزائر التي عاشت معظم حياتها خارجها وداخلها في آن، كما كان الحزن والفرح في لوحة النساء الجزائريات في مخدعهن، فهو خارج اللوحة وداخلها في آن. ربما عاد جسدها إلى بلادها وبقيت هي خارجها، فمنذ أن هجرتها إلى فرنسا عام ١٩٨٠، لم تدخلها إلى قليلا وبالذات في العشرية السوداء كما تعرف في الجزائر، أي فترة الحرب الأهلية المزلزلة التي ضربت البلاد فقتلت عددا كبيرا من أبنائها واغتيل عدد من مثقفيها، بلاد لم تشف من الدماء بعد، تلك البلاد الجريحة هي ذاتها التي بقيت حاضرة في روايات جبار، ولكنها لم تكن يوما في موقع المواجهة السياسية، وهذا ما عرف عنها على أقل تقدير، لكنها في أوج الحرب الأهلية تلك كتبت "الجزائر البيضاء" و"وهران... لغة ميتة"، كتبت عن الموت كما الكثير من الروائيين العرب عموما والسوريين على وجه الخصوص يكتبون اليوم عن الموت والدماء التي تتناثر كحبوب الطلع لتلقح الخسائر بخسائر أعظم.

من المفارقة أني أكتب عن جبار من مدينة كتبت عنها رواية عن الحب "ليالي ستراسبورغ"، خيال العشاق يعمر هذه الرواية ولكنها لم تكن إلا قصة تهرب فيها من أوجاع الموت الجماعي والمجازر والكوارث التي عاشتها الجزائر ولم تكن إلا هربا من غربتها وخوفها من القادم، وربما محاولة للعلاج بالكلمات وفرصة لتفريغ المخاوف والحزن حبرا على أوراق فيذهب معها إلى الآخرين الذين يشاركوننا تلك المفارقات فتصبح تلك الأوجاع أقل ألما وتعبر كغيرها، لأن الإنسان لا يقبل بالنهايات المستعجلة، ولذا دوما يبحث كما بحثت جبار عن طريقة للعلاج من الجنون بالجنون.

تلك الرواية عن الحب المتخيل في بلاد عامرة بالحب اليوم، هي جواب لسؤال لماذا لم تترك جبار هويتها وترحل في ثقافة الشوارع الباريسية؟ كيف لها أن ترحل فيها وهي كل يوم ترى أهل جلدتها وهم يعانون الغربة مثلها لأجل حياة بالكاد تقيهم شر الموت جوعا، كيف لها أن ترحل وهي التي ورثت الحزن كما معظم المشرقيين وصلها عبر الحبل السري ورضعته في حليب أمها التي ما تزال على قيد الحياة جسدا دون إدراك وخاصة بعد موت ابنتها، ربما من حسنات جبار أنها لم تنجب، فلذا كان هذا ما جنته عليها أمها وهي لم تجن على أحد، حالها اليوم كحال المعري، ولكن هل ستذكر في كتب العرب أم في كتب الفرنسيين؟ هل سيقال عنها الكاتبة الجزائرية أم الفرنسية؟ أين هي هويتها بعد كل ما سبق؟ هويتها هناك حيث ولدت في ٣٠ يونيو عام ١٩٣٦ في مدينة شرشال الجزائرية الساحلية، من أب يعمل مدرسا، هناك هويتها حيث دفنت، ولكن للتاريخ كلمته، فكيف ستكون هناك وهي التي لم تترجم إلى العربية بعد؟

آسيا جبار والعطش

تلك العطشى إلى بلادها عادت إليها في جسد على أمل أن تعود إليها لغة ونصوصا، هي التي كتبت رواية "العطش" قبل أن تبلغ العشرين، يوم كانت لا تزال طالبة في باريس، لتعالج أزمة الهوية التي استشعرتها باكرا فتروي قصة نادية، المولودة من زواج مختلط بين أم فرنسية وأب جزائري، نادية التي بقيت تبحث عن "توازنها" وعن السعادة ليس مع زوجها ولكن مع زوج صديقتها، ذاك البحث ربما لم يصل إلى مبتغاه بعد، فنادية ليست إلا آسيا الباحثة عن الراحة في بيت أهلها ولم تجدها إلا في بيت المستعمر، فما أقرب الشبه بين زوج نادية والجزائر وما أقرب الشبه بين زوج صديقتها وفرنسا، بلاد تتقن الحرية إلى حد كبير وتحترم المرأة بطريقة مختلفة عن الشرق، فكيف لا تكون صديقة مريحة وجميلة، ولكنها لم تكن يوما هوية. لأجل ذلك كله عاشت جبار متنقلة بين الجزائر وفرنسا والولايات المتحدة حيث كانت أستاذة الأدب الفرنسي في جامعة نيويورك، ربما هذه المناصب والأعمال كانت نتيجة دراستها باللغة الفرنسية وحرمانها من الدراسة باللغة العربية في الجزائر فترة الاستعمار الفرنسي الذي ما إن انتهى ونالت الجزائر استقلالها حتى عادت جبار إلى بلادها لتدرس مادة التاريخ في جامعة الجزائر، وتوقفت عن الكتابة حتى العام ١٩٨٠ عندما هاجرت نهائيا إلى فرنسا.

وفي فرنسا أصدرت أشهر أعمالها بدءا بالمجموعة القصصية "نساء الجزائر في شقتهن" عام ١٩٨٠، ثم روايات "الحب.. الفانتازيا" عام ١٩٨٥، و"الظل السلطان" عام ١٩٨٧، التي تدعو من خلالها إلى الديمقراطية وحوار الثقافات وتدافع عن حقوق المرأة التي لم تغب عن كتابات جبار ولا عن هاجسها العام. كما عملت جبار في مجال السينما، فأخرجت فيلما طويلا للتلفزيون الجزائري عام ١٩٧٧ بعنوان "نوبة نساء جبل شنوة" وهي منطقة قريبة من مسقط رأسها شرشال، نال الفيلم جائزة النقد الدولية في مهرجان البندقية السينمائي، ثم أخرجت فيلما بعنوان "الزردة أو أغاني النسيان" عام ١٩٨٢.

وآخر ما كتبته جبار رواية "لا مكان في بيت أبي" والتي صدرت عام ٢٠٠٧، رحلت جبار فيها إلى سيرتها الذاتية، وذكرياتها المرتبطة بذاكرة شعبها. قضت جسدا في أحد مستشفيات باريس يوم السبت ٧ فبراير ٢٠١٥ ودفنت في مسقط رأسها شرشال غرب العاصمة الجزائر تنفيذا لوصيتها، وهنا يأتي جواب سؤالنا لماذا لم ترم حزنها بعيدا وتستسلم للفرح؟ بأنها لم تكن يوما إلا فرحة بكل ما تقدمه لبلادها وأهلها وشعبها، فكيف لها أن تترك ذاك الحزن الذي ترسمه دموع الفرح.

عن العربي الجديد

"الثمن باهظ جداً كلما تعلق الحال بمصير الأنثى وصوتها أو جسدها"

آسيا جبار

آسـيا جبـار - عـن الصـوت الخـارق للصمت المتفق عليه

لا يستثنى عمل واحد من مجموع أثر آسيا جبار الأدبي عن التلويح بهذا الصوت الآخر. المؤنث، الخارق للصمت المتفق عليه والمتحدي للصوت المهيمن اجتماعياً، بل لعل اختيارها للغة أجنبية «الفرنسية» مرتبط بهذا التحدي للمسكوت عنه! «غنيمة حرب»، تدعو الكاتبة لغتها الأجنبية الباقية من إرث كولونيالي طويل. لكنها في الوقت نفسه، غنيمة دفعت بها، مثل آلاف المغاربيات في سنوات الخمسينات، خارج حمى الحريم كما تصرح.

بهذه اللغة الأجنبية انتقلت آسيا جبار إلى مستوى التعبير عن تاريخها كامرأة، في مجتمع يرزح، رغم ثورته، تحت ثقل علاقات أبوية، وصولا إلى خبايا الجسد الأنثوي وصوته المدفع كأبين عبر حقب طويلة من التاريخ. رغم ذلك، تتسم كتابات آسيا جبار بالحداثة في الأسلوب والمضمون على الرغم من تمسكها بالتقاليد العريقة للمجتمع الذي تتحدر منه. في هذا الحوار، تلقي الضوء آسيا جبار على أهم ما جابهته ككاتبة من تحد:

كيف أصبحت كاتبة؟

. مما لا شك فيه، أنه لم يكن يُقدر لي أن أصبح كاتبة لولا مواصلة دراستي الثانوية. والفضل في هذا يعود إلى أبي الذي كان يعمل معلما. وكان بطبعه رجل القطيعة والحداثة في وجه الامتثال أمام التقاليد الجامدة ولا أقول التقاليد الأصيلة. كنت متشبهة بالأولاد أنداك. وكان أول فعل أقوم به هو حرية التنقل الذي كان صعباً على الفتيات وخاصة في الأماكن العامة.

أنت متعلقة بالجزائر من خلال إبداعاتك لماذا هجرت هذا العالم والتحقت بباريس؟

. لم أذهب إلى باريس إلا في عمر الأربعين، وقد درست فيها. ولكنني أحتفظ بمسافة من المجتمع الفرنسي الذي لا أمتلك منه سوى اللغة التي أصبحت أرضي الوحيدة في نهاية المطاف. وعلى الرغم من انني استخدم اللغة «الأجنبية» كما يقال إلا إنني طرحت من خلالها علاقتي بتاريخي وهويتي ومحظورات المجتمع الجزائري وغيرها من الأسئلة الساخنة. لقد دفعنا ثمنا غالياً من أجل الاستقلال الذي تحول إلى مجرد ذاكرة ووشم للثورة والمعارك.

كيف ينظر الفرنسيون لأدبكم الذي يطلقون عليه الفرانكوفونية؟

. لا يرى النقد الفرنسي في كتابات الأدباء «الذين استعمروا سابقاً» غير مفاتيح للتفسير السوسيولوجي المباشر. وكان علي وأنا أستغرق في سيرتي الذاتية أن أعبّر عن خصوصيتي الجزائرية وأعمل جاهدة على إخراج هذه اللغة من ظلالها الثقيلة وماضيها المثير في الجزائر. ولكني أعتبر أن مهمة الكاتب هي مهمة اللغة بالدرجة الأولى. هذه اللغة في الأربعين عاما العنيفة التي أطلق عليها «حرب الجزائر الأولى» لم تتقدم إلا على طريق الدماء والمجازر والاغتصاب. والمجتمع الجزائري شأنه شأن جميع مجتمعات الجنوب والبحر الأبيض المتوسط يتميز بتقاليده الإسلامية وثقافته الأندلسية التي تمثل خليطاً من الثقافات. أما القرن التاسع عشر فكان قرناً تدميرياً في الجزائر لأنه شهد على حروبه. وعانى المجتمع الأمرين، أولا باستعمار فرنسا للبلد وثانيا بقيام هذا المجتمع بتضييق الخناق على أبنائه وخاصة النساء اللاتي حجزهن في عزلة قاتلة داخل جدران البيوت. كانت النساء الجزائريات يعشن في الثلاثينات والأربعينات مثلما صورهن الرسام يوجين ديلاكروا في لوحاته الاستشراقية في البيوت المغلقة والأزمنة المؤجلة. عندما بدأت الذهاب إلى المدرسة الفرنسية عشت بين عالمين عالم المستعمر وعالم الانغلاق.

هل خصصت رواية لهذا الموضوع ؟

نعم في رواية «الحب والفانتازيا» وروايات أخرى.

هل أنت عربية أم بربرية؟

لقد تحدثت عن ذلك في روايتي «ما أوسع السجن» مؤكدة على أن اللغة البربرية في المغرب لها حضور أكثر قدماً من اللغة العربية لأن العربية دخلت مع القرآن والإسلام إلى مناطق البربر الجبلية. ولا تزال منطقة القبائل الكبيرة لا تتحدث إلا باللغة البربرية فقط.

في إحدى رواياتك تتحدثين عن أم تبحث عن ابنها السجين في فرنسا؟

نعم إنها رواية مستقاة من سيرة الذاتية وهذه الأم هي أمي. في البداية، كانت رواياتي متخيلة استخدمت فيها معرفتي للمجتمع ومعمار البيوت وأسلوب حياة الناس. وحاولت أن أعبر عن الشباب الذين يحاولون خرق التقاليد المترتمة.

توجهت إلى تصوير الأفلام السينمائية، هل كان الأدب قاصراً في التعبير عن عوالمك؟

كلا لم يكن الأدب قاصراً أبداً كما لن يكون. لكني عبر السينما وتصوير الريبورتاجات كنت أشعر بالحاجة إلى التواصل مع الفلاحين والقرويين المنحدرين من أصول متنوعة. وبعد أثنى عشر عاما على الاستقلال عدت إلى قبيلة الأم، الحاضنة الأولى لكل أفعالنا.

هل حاولت الكتابة باللغة العربية؟

كتبت أربع روايات خلال عشرة أعوام من عمر العشرين إلى الثلاثين. وكنت حينها روائية وجامعية. وفي تلك الفترة، تساءلت فيما لو كان من الممكن أن أكتب بالعربية لكنني وجدتها معقدة وتحتوي على لهجات متعددة على الرغم من أن كاتبا سودانياً يُمكن أن يُقرأ من قبل مغربي أو عراقي. وقد أثرت الأفلام المصرية في نسائنا، فهن في القرى الجزائرية يعرفن الرقص والغناء المصري. ويفهمن اللهجة المصرية كما لو عشن هناك. للأسف الشديد استعنت كثيرا باللغة اللاتينية واليونانية وكانت اللغة العربية بالنسبة لي لغة ميتة على الرغم من دراستي للقرآن.

فيلمك «نوبة النساء» حاز على جائزة النقد في مهرجان فينتيسيا عام ١٩٧٩؟

كانت لدي ثقافة سينمائية وكنت أتردد على صالات السينما كثيراً. وعندما عدت إلى فرنسا عام ١٩٧٤ لم أكن أعرف ما أقوم به. وكانت الجامعة تريد مني أن أوقع على حقوق إعداد إحدى رواياتي للتقديم على الشاشة. قلت لهم: إنني أريد شيئاً آخر وهو أن أخرج هذا الفيلم بنفسي. وبالفعل فقد أخذت معي سائقا ومهندسا ومصورا وقمت بتصوير ٤٠ ساعة من المحادثات مع النساء.

هل يمكننا أن نتحدث عن مسعى للكاتبة في تحرير أصوات نسائها بل وأجسادهن وصولا إلى تحرير الحاضر الأنثوي بعد تحرير الماضي؟

لكن الثمن باهظ جداً كلما تعلق الحال بمصير الأنثى وصوتها أو جسدها.

عن البيان الإماراتية

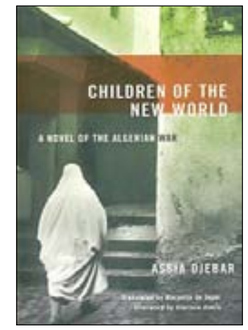

سمير عواد

آسـيا جبـار صاحبـة «الحـب والفنتازيا» و«أغاني النسيان»

يركز الجانب العربي على شخصية الأديبة الجزائرية آسيا جبار الحائزة جائزة السلام التي يقدمها سنويا اتحاد الناشرين الألمان على هامش معرض فرانكفورت للكتاب.

ويذكر أن هذه الأديبة التي عاشت بعيدا عن وطنها الأصلي لديها جمهور عريض في الغرب وهي من أبرز الأدبيات العربية اللواتي لهن مواقف ناقدة للكثير من الأنظمة السياسية العربية والاسلامية وفي الوقت نفسه تسعى من خلال أعمالها إلى إيضاح الهوية العربية والإسلامية على طريقتها الناقدة والتي أكسبتها احترام وتقدير الكثيرين داخل العالم العربي والإسلامي أيضا.

الأولى دائماً

كانت آسيا جبار المولودة في شرشال/الجزائر العام ١٩٣٦ الأولى في كل مجال دخلته تقريبا. فكانت تدرس في مدرسة (سيفر) العليا النخبوية، وكانت أولى النساء الجزائريات اللواتي يعلمن في الإخراج المسرحي والسينمائي في بلادها بنجاح. وكانت أول أستاذة جامعية للتاريخ والعلوم الأدبية، مارست التدريس في الرباط والجزائر. وأخيرا كانت أول كاتبة عربية حازت على جائزة السلام التي يقدمها اتحاد الناشرين الألمان وكان ذلك في العام ٢٠٠٠، وبعد أن فازت بالكثير من الجوائز الأدبية الدولية. امتازت روايات وأفلام ومقالات آسيا جبار بأنها بمثابة احتجاج على الصمت المطبق للنساء الجزائريات، كما تشرح بنفسها قضية كتاباتها وتضع القوة الجلية والحساسة للكتابة في مواجهة الصمت الخانق للمسلمات على حد تعبيرها.

آسيا جبار مقاتلة نسائية تنطق باسم أخواتها المقيدات في بيوتهن، وتنتقد إخوانها التقليديين بجرأة، وهي كاتبة واثقة بنفسها تنشر رسالتها دوليا. غير أنها ليست محاربة قاسية، بل هي متمردة ناعمة تحقق أهدافها عبر الكلمات المقنعة بصفتها روائية ومؤلفة مسرحيات وقصائد ومقالات وبصفتها مؤرخة وصحافية. يحتفل بها في وطنها الجزائر كرمز للحرية والمصالحة، وفي الوقت نفسه مازال بعض الجزائريين يعتبرونها فضيحة.

تربت آسيا جبار في الجزائر كبنت لأستاذ مدرسي، ما مكنها من الالتحاق بالمدرسة الابتدائية الفرنسية إلى جانب المدرسة القديمة التي تلقب بالكتاب مع التشديد على التاء. ولولا ذلك لما كنت ستصبح أدبية فيما بعد. فقد ذكرت في كلمة الشكر حين تسلمت جائزة اتحاد الناشرين الألمان العام ٢٠٠٠: كان أبي رجلا يؤمن بالحداثة وخالف تقاليد المجتمع التي كانت ستفرض عليّ حياة في سجن كما كان هو حال بقية البنات اللواتي هن في عمر الزواج. فترك لها أبوها مجالا للتحرك خلافا لعموم الآباء. وتابعت فقالت في المناسبة نفسها: لولا ذلك، ولو لم أتمتع بحرية التجول في شوارع المدن بحماس ومراقبة الأشياء مثل الصبيان، وهو ما أمارسه إلى هذا اليوم، لما كنت سأشق الطريق الأدبي بعد خمس أو ست سنوات من ذلك الوقت.

باشرت آسيا جبار دراسة التاريخ في مدرسة سيفر العليا العام ١٩٥٥ كأول طالبة جزائرية، وتم طردها من هناك بعد سنتين لمشاركتها في إضراب سياسي للطلبة الجزائريين الذين كانوا يناضلون لأجل استقلال الجزائر في باريس. في الوقت ذاته احتفلت الصحف الفرنسية بآسيا جبار البالغة ٢١ عاما من العمر آنذاك لإصدارها أولى رواياتها (العطش). وكان هذا أول كتاب لها احتجت فيه على معاملة النساء في مجتمع صارم وكان مفاد ما أرادت أن تقوله ان ما يقف في طريق تحرير المرأة ليس الإسلام كما نشره الرسول محمد (ص) وإنما التقاليد التي تجري نسبتها ظلما للإسلام.

ألفت الكاتبة روايتها خلال شهرين أثناء الاضطرابات الطلابية ولم تجرؤ أن تنشرها باسمها الحقيقي خوفا من أن الرواية لن تعجب أبيها. فطلبت من خطيبها الجزائري المطلوب من الشرطة الفرنسية آنذاك أثناء الذهاب إلى دار النشر، وهما في سيارة الأجرة، أن يردد لها أسماء الله الحسنى لكي تنتقي منها اسما مستعارا مناسبا، فاختارت اسم (الجبار) لها. قورنت رواية (العطش) في فرنسا برواية ساغان (أهلا بالحزن) بينما أخذ عليها النقاد الجزائريون أن (العطش) لا تعبر عن الوضع السياسي الراهن.

توجهت آسيا جبار إلى الفيلم لكي تستطيع الوصول على الأميين أيضا وإلى الذين لم يقرأوا مؤلفاتها. فاز أول أفلامها (نوبة نساء جبل شنوة) للعام ١٩٧٩ بالجائزة الدولية في مهرجان البندقية. أما فيلمها الثاني (زردا أو أغاني النسيان) العام ١٩٨٢ وهو عبارة عن توثيق لطبيعة الحياة في المغرب العربي في النصف الأول من القرن العشرين، فقد فاز بجائزة أفضل فيلم تاريخي في مهرجان برلين السينمائي. وشاركت آسيا جبار في السبعينات في الكثير من الإنتاجات السينمائية كمخرجة مساعدة، وكمخرجة العام ١٩٧٣ لمسرحية توم أينس عن مارلين مونرو بعنوان (العاهرة البيضاء والممثل الصغير). وباشرت آسيا جبار تدريس السينما بعد عودتها إلى جامعة الجزائر.

بعد فترة صمت استغرقت عشر سنوات صدر كتاب (نساء الجزائر) العام ١٩٨٠. يشير العنوان إلى لوحة للرسام ديلاكروا، وتغامر المؤلفة في مجموعة القصص هذه بأساليب جديدة مثل الحوارات بين النساء ورنين اللغة وتقنية المونتاج كما تستخدم في الأفلام.

(الحب والفانتازيا) هو الجزء الأول لرباعية تهتم بالأوجه المتنوعة للمغرب العربي في ماضيه وحاضره، وكان الجزء الثاني هو (ظل السلطانة) للعام ١٩٨٧. وفي (بعيدا عن المدينة) تصف الكاتبة حياة النساء في زمن الرسول محمد (ص). وترتبط رواية (السجن الواسع) التي صدرت في العام ١٩٩٥.

كتبت آسيا جبار في العام ١٩٩٧ رواية حب بعنوان (ليالي ستراسبورغ) ردت بها بصورة غير مباشرة على الجرح الذي تعرضت له نتيجة الوضع المأسوي في الجزائر.

كتبت (امرأة لم تدفن) الذي صدر العام ٢٠٠٢ هو كتاب بين الرواية والتوثيق، ففي هذا العمل تحاور بنات ورفاق زليخة بطلة المقاومة الجزائرية بعد عقود من وفاتها، وتحاول المؤلفة أن ترسم حياة تلك المرأة الشجاعة من جديد. أما في العام ٢٠٠٣ فصدرت رواية أخرى لآسيا جبار (اختفاء اللغة الفرنسية)

عملت آسيا جبار أستاذة جامعية ومديرة في مركز الدراسات الفرنسية في جامعة لوزيانا بالولايات المتحدة.

عن الحوار المتمدن

http://www.almadapaper.net - E-mail: almada@almadapaper.net

آسيا جبّار.. نشيد ضد النسيان

د. المعز الوهايبي

آسيا جبار (١٩٣٦ ـ ٢٠١٥)، كاتبة جزائرية بلسان فرنسي، تطبع دراستُها للتاريخ منجزَها السردي. فالتاريخ، بعيدُهُ وقريبُهُ، يحضر محورا مركزيا في مختلف رواياتها وقصصها (معظمها لم يُترجم إلى العربية)؛ بل هي تشكل منه عالمها الأدبي فتُحاور سِيَرا وأخبارا تاريخية، أضحت مقدسة إلى درجة ما بفعل التقليد، محاوَرَة تتبع فيها تقنية «الجرح والتعديل». إذا ما توسلنا بهذا المصطلح الفقهي. لكنها لا تجرح وتعدل بوصفها مؤرخة، وإنما بوصفها أديبة مخيلة؛ فإذا هي تحل الزمن السردي محل التدوين التاريخي فاسحة المجال أمام المشافهة النسوية في مواجهة المكتوب الذكوري.

لفهم الاشتغال أدبيا، لدى آسيا جبار، على التاريخ لا بد من بسط طريقتها في تحويل مجرياته إلى زمنية temporalité كتابية؛ فلا يتعلق الأمر، هاهنا، بالزمن الذي تستغرقه حركة حدوث الشيء أنطولوجيا؛ وإنما باستجلاب أزمنة مختلفة وعركها في زمنية الكتابة. هي تنسج مؤلفاتها من خليط تاريخي وثقافي يشكل التراث الذي يبقى هاما لديها؛ فهي تحيل إلى أحقاب غابرة من التاريخ العربي الإسلامي، لكنها تحيل بالأساس إلى لحظة استعمار الجزائر في بدايات القرن التاسع عشر، ثم إلى خمسينيات القرن الماضي عندما اندلعت حرب الجزائر، أو إلى أحداث قريبة مؤلمة فجرتها الحركات المتشددة في ثمانينيات القرن الماضي وتسعيناته في سعيها المحموم إلى تحويل وجهة البلاد.

ولكون الكاتبة امرأة؛ فإن ذلك من شأنه أن يؤثر في نوعية الكتابة لديها وفي أسلوب السرد وحتى في بنية اللغة. إلا أننا وإن كنا نهتم بهذا البعد، فإننا لا نهتم به، هاهنا، ضمن الاتجاه الموسوم بـ«النسوي» سواء استقر بعدُ مصطلحا واضحا أو لم يستقر. وإنما نهتم به من حيث هو يفيدنا في التقصي عن مكونات إنشائية النص الذي يكون مجمل أثرها الأدبي.

تأنيث التاريخ

فلما كانت الكتابة أسلوبا حيث الأسلوب لا تمييز فيه بين شكل ومضمون، فإن فاطمة التي تنتفض معترضة في رواية «بعيدا عن المدينة» (١٩٩١) هي فاطمة أسلوب الكاتبة، وجلوس سلمى بنت مالك في هودجها إبان معركتها ضد خالد بن الوليد هو حتما غير جلوسها في اللغة العادية وغير جلوسها في الواقع؛ إنه هودج يرتفع وسط غبار لغة آسيا جبار في معركتها ضد ما تناسته ذاكرة التاريخ وهي تنزاح بعيدا عن المدينة. بل هو جمل آخر ذاك الذي يتهادى في معهود اللغة، فزمنية تهادي الجمل في الكتابة هي زمنية فعل لغوي تخييلي في جمل متخيَل، وزمنية تهادي الجمل في اللغة العادية هي زمنية الإخبار عن جمل واقعي مشار إليه بعلامة «الجمل». وإذا كان يمكن قياس الفارق بين زمنية ما ينجز في اللغة العادية وزمنية ما يجري في الواقع قياسا كميا؛ فإن زمنية الكتابة بوصفها زمنية ذاتية إنما هي تقاس بغير مقياس الكم. ذلك أن زمنية الواقع عقارب الساعة أما زمنية الكتابة فمقياسها تمثلها بالقراءة والتأويل.

في هذه السردية الروائية للتاريخ تغدو سلمى بنت مالك، وأم الحكيم، وسجاح، وغيرهن أخوات صغريات تأخذ بأيديهن، قبل ألف وأربعمائة سنة، هذه الكاتبة الجزائرية (بعيدا عن المدينة) لتطلق ألسنتهن من جديد.. إنه نوع من الوجودية النسوية Existentialisme féministe.

هناك، إذن، ضرب من تأنيث التاريخ تصير بموجبه تلك المرأة المنتسبة إلى زمن الرسالة منتسبة إلى الراهن النسوي (النساء المقهورات والمنكسرات، ولكن أيضا النساء المتمردات في «بعيدا عن المدينة»)؛ فنصادف عندئذ نساء يستكملن بفضل الكتابة صورتهن التي بترتها فجوات الصمت الكثيرة التي تخترق التاريخ العربي الإسلامي.. فآسيا جبار تقول من خلال كتابتها بأن لها نصيبا في الماضي ولها شراكة مع تلك النسوة. وهي تقول في «هذه الأصوات التي تحاصرني» (١٩٩٩) «في ما يخص الديمومة التقي بنساء من أرض طفولتي، نساء من كل الأعمار (عجائز، أو شابات، أو حتى بنيات) راميات لي باستمرار حدة كلامهن، طلقات أصواتهن، ضحكاتهن، تنهداتهن المكظومة، وبعبارة واحدة لغتهن المتحركة، والحياة نفسها.. ولكل منهن كلامها». وإجمالا، فإن الوثاق الرابط بين كل رواياتها هو الصوت الراوي الأوتوبيوغرافي نسويا.

هكذا يجاور/ يزامن القرنُ العشرون القرنَ السابع في المدينة بالجزيرة العربية، والقرنُ الواحد والعشرون يزامن/ يجاور، في قصة «نساء من مدينة الجزائر بشقتهن» (١٩٧٨)، القرنَ التاسع عشر. فالكتابة لديها فعل يُخرج النسوة/ الطرائد من غفوتهن التاريخية فإذا بالسرد تَمزيق لستائر التاريخ.

سردية الغياب

في روايته «أبيض الجزائر» (١٩٩٥)، تسعى إلى أن تفهم بلدها من خلال إعطاء الكلمة للغائبين، أولئك المثقفين الجزائريين، وبخاصة غياب أصدقاء ثلاثة لها، تم اغتيالهم في ١٩٩٣ (محفوظ بوسبسي، طبيب نفسي وكاتب. محمد بوخبزة، عالم اجتماع وكاتب. عبد القادر علولة، كاتب ومخرج مسرحي). فبما أنها لم تكن تعيش في بلدها، فإنها ولئن كانت تحتفظ بمسافة إزاء الأهوال التي هزته في التسعينات، فإن ذلك لا يحول دون سعيها بلا كلل إلى فهم مصادر الشر الذي أصابه، وبخاصة الاغتيالات التي طالت أصدقاء لها في العشرية السوداء. ولذلك فإن «أبيض الجزائر» هي رواية حداد في تذكير بلون المآتم في بعض بلدان شمال إفريقيا. فآسيا جبار إذ تعطي الكلمة لموتاها إنما تجعل روايتها صرخة من خلف بياض الحداد ضد مواكب الجنازات التي كانت تتلاحق في جزائر تلك الحقبة. ولديها يتخذ الفقْدُ والغياب ملامح كثيرة ومتنوعة؛ فهذا الغياب هو الكلمة الثاوية في الصمت، وهذا يسمح لها باستعادة إبداعية لبعض حلقات حرب الاستقلال التي كانت قد مرت، هي بدورها، تحت جُنح الصمت. هذه الاستعادة من شأنها أن تنير التاريخ اللاحق للحرب الأهلية في التسعينيات. وفي الجملة، فإنها وهي تتذكر غائبيها لا تفعل غير أن تعيد بناء بلدها منذ العقود الغابرة إلى اليوم.

تتولى «لغة الموتى»، عنوان الفصل الأول من «أبيض الجزائر»، بسط ذكريات عن نقاشات كانت قد تمت قبل رحيل أصدقاء الكاتبة، بل وحتى ثرثرة من وراء الموت، وحوارات تخترعها آسيا جبار لحظة إنشاء قصتها. وهي تقول عن موت أصدقائها الثلاثة «يحل مصحوبا بصخب في الدم المسفوح، فهو يهز أجلنا ويغتصبه، يتركنا في لهاث». فمسار القص، في هذه الرواية وغيرها، تتخلله فقرات خارج سياق تعاقب الأحداث بحيث يمكن اعتبارها بمثابة الثقوب التي تجسّم الفراغ والغياب المقترنين بالصمت.

اضطلاع الكتابة بترميم الغياب يتحقق كذلك في كثير من أعمال آسيا جبار؛ فهي لا تفعل في «امرأة بلا لحد» (٢٠٠٢) غير أن تبني قبرا من السرد، بل مزارا من الكتابة لزليخة، تلك المرأة التي صعدت إلى الجبال للمقاومة في ربيع ١٩٥٧، ثم اعْتُبِرت مفقودة بعد سنتين من إيقافها. هذا القبر السردي تُشيده الكاتبة من شهادات ابنتيها وهما تتحدثان عنها أما، ومن شهادات أخريات يتحدثن عنها صديقة وحبيبة. فإذا بالرواية نشيد ضد النسيان والتقاء حميم بنساء عادة ما ينساهن الخطاب، بما في ذلك الأدبي، قابعات في بيوتهن أو على هامش الأحداث. لكن هاهنا ننصت إليهن وننصت من خلال أصواتهن إلى زليخة تتكلم من وراء ستار غيابها.

شعرية الصمت

الماضي بالنسبة إلى نسائها هو الصمت. ولذلك هي تمد لهن حبل اللغة مشتغلة على إدراج الصوت المكتوم في كتابتها.

لكن كيف يمكن أن نعرف الصمت، ماديا، إن لم يكن بواسطة الغياب؟ وكيف نتعرف على هذا الغياب عندما ننشغل بنص مكتوب؟ في الواقع، كان رولان بارت قد تكفل من قبل بالإجابة عن مثل هذه الأسئلة؛ وذلك في «الدرجة الصفر للكتابة». فمن بين الحلول التي يقترحها خلق كتابة بيضاء يحددها على أنها «محررة من كل خدمة لنظام للغة معلوم». لكن كتابة آسيا جبار بعيدة أن تكون بيضاء بالمعني الذي يقصده بارت. فهي تعبر عن الصمت بعلامات ومفردات مختلفة نجد من بينها «الإضمار» أو «الحذف» أو «الإيجاز» على نحو يتواتر بكثرة في «أبيض الجزائر»، وبتفاوت في «نساء من الجزائر المدينة في شقتهن». فضلا عن ذلك، هي تصف الصمت بجمل قصيرة أو بملخصات عن الأحداث التي دامت طويلا.

لديها تستحيل الكتابة فضاء للالتقاء بنساء محبوسات في التاريخ فإذا بها، عندئذ، تمكين وجودي جديد لنساء أخرستهن كتب الأخبار والسير. لكنها لا تتولى فقط إحياء نساء من التاريخ بل تحيي نساء من الاستشراق المتلصص؛ فكأن الواحدة من «نساء من مدينة الجزائر بشقتهن» تقول كونها تريد الخروج من لوحة ديلاكروا التي تتسمى باسمها القصة (رسمها في فرنسا سنة ١٨٣٤). فهذه اللوحة ليست إلا علامة على انتماء خادع، تريد الخروج من هذا السكون الذي يغلفها بصمت النسيان، تريد التدثر بحرارة الكلمات. على أن بيكاسو قد مهد لها الطريق عندما تمثل لوحة ديلاكروا تكعيبيا (١٩٥٤). فهي تؤكد، وهي تتأمل لوحته «لا أثق إلا بالباب المفتوح على الشمس تماما، الذي أقامه بيكاسو، فهو تحرير مجسد ويومي لهؤلاء النسوة». ونساؤه مرسومات عاريات كما في حمام قصتها الذي تدخل إليه بطلاتها. فهي تفهم عري النساء في اللوحة هكذا: «البطلات عاريات تماما، كما لو أن بيكاسو قد عثر على حقيقة المفردة المستخدمة في العربية، التي تماثل بين (مكشوفات) و(متعريات). كما لو أنه بهذه التعرية لا يضع فقط علامة تحرر، وإنما بالأحرى علامة ولادة جديدة لهؤلاء النسوة في أجسادهن»؛ لا خارجها. وهي ولادة أصواتهن أيضا حيث الجسد العاري لفاطمة، المدلكة، وقد عُرك بكلمات النسوة وثرثرتهن تنبجس من مسامه حكايَات النسوة ووشوشاتهن إذا ما تجولتْ في الجزائر المدينة كأن هذه المسام طبقات أصوات نساء أخريات كثيرات.

تسعى الكاتبة، إذن، وهي تفك الشفرات البصرية للوحتين إلى أن تنقل هؤلاء النسوة من إطار التشكيل إلى إطار القص، من الفضاء البصري إلى فضاء الحكي. فتحررهن باقتلاعهن من الموديلات التي خلقها الرسامان وتوفر لهن، في الوقت نفسه، تحررا عينيا بما أن الأمر يتعلق بتخليص المرأة من أفضية الانغلاق وبخاصة الحريم، أي إخراجها من دائرة الصمت. فهي تحيي بين هؤلاء النسوة النقاش الذي جمده ديلاكروا في اللوحة»؛ وقد خلعت عليهن أسماء وأخرجتهن إلى الفضاء العام مستخدمة لقصتها مسارات تعبير خاصة بالحلم (الذي يطغى على اللوحة)، حتى تستطيع أن تشتغل عما تخفيه صور الرسام.

وإذ تمد آسيا جبار حبل التعبير للنساء فهي تنطلق من الجسد بما هو لغة نحو الصوت. وفي ذلك لا تزهد البتة في وصف حوار الأجساد كما هو الشأن في «القبرات الساذجة» (١٩٦٧): جسد رشيد وجسد زوجته نفيسة. الجسد يتكلم الأحاسيس، والرغبات، والطموحات التي تجعلها اليقظة قابلة للقراءة بوضوح. على أن لغة الجسد هذه ليست فقط ثمرة لرؤية الكاتبة بوصفها سينمائية أيضا؛ وإنما هي اللغة التي تستخدمها النساء تلقائيا عندما تعز القدرة على الكلام. ويضاف إلى ذلك أن الجسد والصرخة مقترنان حميميا. وهاهنا نلفي معجم الكاتبة غنيا: صراخ، نواح، لهاث، نحيب.. أصوات تمفصلها آسيا جبار لتحويل الصمت إلى عبارات.

«عروبة» الفرنسية

ظلت آسيا جبار طيلة مسيرتها الأدبية تستشعر إحراجا ملازما لها باستمرار في ما يخص كتابتها باللغة الفرنسية التي حولت إليها أصوات نسائها وصرخاتهن المحبوسة، نسائها اللواتي لا يعرفن هذه اللغة الدخيلة التي ينطقن بها في نصوص الكاتبة. وقد قالت هي نفسها ذات مرة بأنها تكتب بالفرنسية، لغة المستعمر القديم، التي أصبحت لغة تفكيرها، في حين أنها تواصل الحب، والألم، والصلاة أيضا بالعربية، لغتها الأم. أما العربية الفصحى، لغة القرآن، فهي تقول عنها في «الحب، المحفل» (١٩٨٥) بأنها ذات قوة مؤثرة حيث «نلج إليها كما في الحب، بفحيح يخلب القلب». وقد كتبتْ أيضا في «هذه الأصوات التي تحاصرني»: «اللغة الفرنسية التي أكتب بها تقوم على موت لغاتي.. أما اللغة الأم فتنبثق من قبرها».

عن جريدة العربي

الجزائرية آسيا جبـار.. الكاتبة التي لا تغيب

عيسى مخلوف

لا إصدارَ جديداً للكاتبة الجزائرية باللغة الفرنسية آسيا جبّار، ومع ذلك فإنّ قديمها متجدّد ويتمّ تداوله باستمرار، والكاتبة حاضرة في المشهد الثقافي الفرنسي من خلال مؤلفاتها وكذلك السجالات التي فتحتها وتتناول بالأخصّ موضوع الهويّة والاستعمار والمرأة واللغة. ولقد جرى مؤخّراً في المدينة الجامعية في باريس لقاء حول كتابها "لا مكان في بيت أبي" الذي يحكي سيرة فتاة تعيش في الجزائر العاصمة، تخرج من الثانوية حيث تتابع دروسها وتجول في الشوارع فرِحَةً بما ترى، مأخوذة بفضاءات المدينة وبالشعر. غير أنّ هذه الحياة الحرّة العذبة جاءت قبل عام واحد من انفجار كبير هزّ البلد بأكمله.

في هذا الكتاب الذي يروي جزءاً من السيرة الذاتية للكاتبة، تمّ التركيز أيضاً على بعض الموضوعات الأخرى: جروح الوطن وجروح الذات المقيمة في الوطن. ويكشف الكتاب عن حال التمزّق أمام واقع شديد التناقض والتعقيد والقسوة. يضاعف من حدّة المواقف أنّ الكاتبة عاشت بين لغتَين وثقافتَين، وعبّرت في نتاجها الأدبي عن هذه الازدواجيّة بأشكال مختلفة.

تقول آسيا جبّار: "أكتب ضدّ الموت، أكتب ضدّ النسيان. أكتب على أمل أن أترك أثراً ما، ظلاً، نقشاً في الرمل المتحرّك، في الرماد الذي يطير وفي الصحراء التي تصعد...". وراء هذا النفس الشعري، نقرأ أيضاً أنّ الكتابة فعل أمل وتعبير عن التزام بالإنسان وتطلّعاته وهمومه. وهي هذه النزعة الإنسانية بالذات ما طبع نتاجها المتعدِّد، شعراً ورواية ومسرحاً وأفلاماً وثائقية تجلّت في أفلامها "نوبة نساء جبل شنوة" (١٩٧٧) الذي حاز على جائزة النقد العالمي في مهرجان البندقية للعام ١٩٧٩، وفيلم "زردة أو أغاني النسيان" (١٩٨٢) الذي نال جائزة أفضل فيلم وثائقي في مهرجان برلين السينمائي، وقد اهتمّت في عملها السينمائي برصد الواقع الجزائري، والمرأة والذاكرة، وهي، كما أشرنا، من المحاور الأساسية التي تطالعنا في عملها الأدبي. ولدت الأديبة آسيا جبار واسمها الحقيقي فاطمة الزهراء عام ١٩٣٦ في مدينة شرشال حيث تلقت دراستها الأولى في المدرسة القرآنية قبل أن تلتحق بالمدرسة الابتدائية الفرنسية في مدينة موزايا ثم البليدة فالجزائر العاصمة. وكان لوالدها دور مهم في تشجيعها على متابعة تحصيلها العلمي ودفعها دائماً إلى الأمام، وهي تصفه "بالرجل الذي يؤمن بالحداثة والانفتاح والحرية". ولم تمنعها دراستها في فرنسا من المشاركة في تظاهرات الطلبة الجزائريين المؤيدين للثورة الجزائرية.

بين الجزائر وفرنسا توالت أعمالها الروائية، من رواية "العطش" إلى روايات أخرى: "بعيداً من المدينة"، "نافذة الصبر"، "الحب الفانتازيا أو ظلّ السلطان"، "شاسع هو السجن" و"ليالي ستراسبورغ"... في هذه الروايات تروي الكاتبة أيضاً جزءاً من سيرتها وسيرة بلدها، وتستند إلى التاريخ كأحد العناصر الأساسية في بلورة أعمالها بدون أن تنتمي هذه الأعمال إلى صنف الرواية التاريخية، بل هي أبعد ما تكون عن ذلك. فهي تنطلق من وقائع تاريخية ثابتة ومحددة كما في روايتها "وهران لغة ميتة" التي تروي فيها معاناة المرأة الجزائرية في مرحلة صعود التيار المتشدّد في التسعينيات، أو كما في كتابها "أبيض الجزائر" التي تحكي فيه عن مشكلات اللغة المطروحة داخل الجزائر والتي تعمّقت بفعل مرحلة الاستعمار. وهي تعي هذه المسألة تماماً خاصة أنها ترعرعت في كنف البربرية والمحكية الجزائرية والفرنسية. من هنا كان موضوع اللغة من المواضيع التي شغلت الكاتبة طوال مسيرتها الإبداعية ولا تزال تشغلها حتى اليوم. ولقد عبّرت عن هذا الهاجس في مناسبات عدة لا سيما في "البرلمان العالمي للكتّاب" وهي من أعضائه منذ تأسيسه عام ١٩٩٤، حيث قالت إنها "دائمة الانشغال بمسألة التنوّع الألسني والثقافي في الجزائر وفي دول أخرى".

عملت آسيا جبار منذ عام ١٩٩٧ مديرة في "مركز الدراسات الفرنسية" في جامعة لويزيانا، ومنذ أربع سنوات تعمل كأستاذة محاضرة في جامعة نيويورك، وأعمالها الأدبية مترجمة إلى الكثير من اللغات. كما أن اسمها في السنوات الأخيرة كان مطروحاً بين الأسماء المحتملة لجائزة نوبل للآداب. ولا بدّ من الإشارة أخيراً إلى أنّ تجربة آسيا جبار الأدبية، ككل التجارب الإبداعية الكبيرة، تنطلق من الخاصّ لتلامس العام، ومن معاناة الإنسان في الجزائر لتلامس معاناة الإنسان في العالم أجمع.

عام ٢٠٠٥، تمّ انتخاب الكاتبة الجزائريّة آسيا جبار عضواً في الأكاديمية الفرنسية. وجاء هذا التعيين تتويجاً لتجربتها الإبداعية، ولمساهمتها الفعّالة في الحياة الثقافية، وكذلك للعب دور الوسيط بين ثقافتين ولغتين، بل بين الشرق والغرب، ومَن غير المبدع الحقيقي يستطيع أن يكون جسراً بين الثقافات والحضارات المختلفة في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى مثل هذه الجسور، كأداة تواصُل وتقارب وتَفاعل، وذلك لصالح الإنسانية جمعاء.

عن صحيفة الاخبار اللبنانية

manarat
WWW. almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني
خالد خضير

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

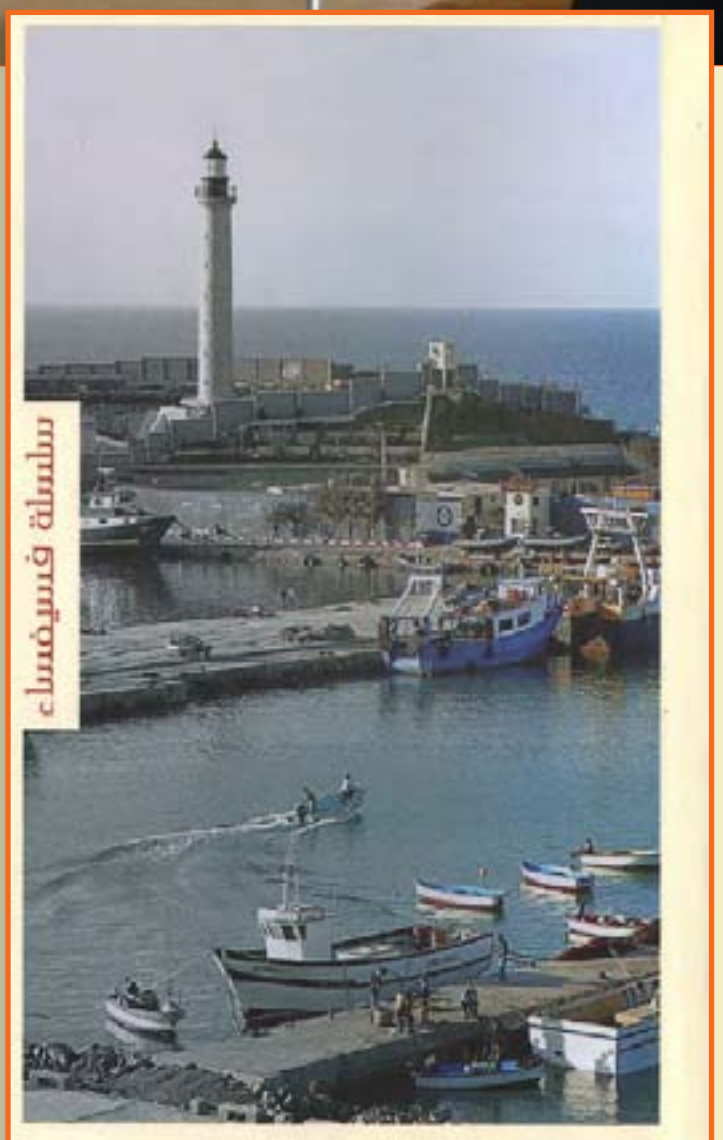

اسيا جبار وذكرياتها

سعد محمد رحيم

في كتابها (بوابة الذكريات)× يوغل وعي آسيا جبار عميقاً إلى جوف الكينونة.. إلى بئر الليبيدو التي منها ينبثُّ نور الوجود. النور الصانع لتلك التشكيلة المبهرة من الضوء والظل حيث صورة الحياة المجسّمة، الرجراجة.. السعي لالتقاط لحظات الدهشة الأولى، لذة اكتشاف معنى أن تكون ذاتاً مع الآخرين، ومائزاً عنهم.. إنها تتحرى عن الأسرار الخبيئة الوحشية والبريئة، من غير مواربة وخوف غالباً، وبمناورات مجازية قليلاً، في محاولة للإمساك بجذر الأشياء والمشاعر والرغبات، كما لو أن العنوان الملحق، الثاوي بين الصفحات هو: حكاية جسد في العالم.. مروية جسدها باستحالاته الطبيعية والعاطفية والرغبية.

تستخدم المؤلفة لغة مهموسة، حادّة، ورهيفة كالشفرة، لتُحدث جروحاً صغيرة في جلد ذاكرتها، لتقترب، وهي تعيش مسرّات الاكتشاف. أو بالأحرى إعادة الاكتشاف. والاعتراف، من ذاتها؛ عقلاً وجسداً وروحاً.. أن تعرف كيف حصل الأمر عبر حسّها المغموس باستعارات اللغة وكناياتها، المتبّل بالشعر، والمعروض في صور تثير الفضول، وتعطي وعوداً بمتعٍ خارقة.

هو كتاب عن نمو الوعي وتكوّنه، فوعي الأنا ينبثق على مهل، مع كل تجربة عابرة، مع كل مغامرة صغيرة أو كبيرة، مع كل انتهاك لنواميس ومواضعات مجتمعية قارّة. فثمة مسحة إيروتيكية للكتاب، قشرة خفيفة وامضة، لكنها مهذّبة، مثقّفة، هادئة، غير منفرة، غير متطلبة بإفراط، طبيعية جداً، متسائلة أحياناً، مفعمة بالرقة، ببعض الخشية، وبنزر يسير من الحياء الشرقي.

تستعيد آسيا جبار بعضاً من التفاصيل الدقيقة لتحوّلات جسدها من طفلة إلى مراهقة، وشابة، إلى امرأة في أواسط العمر، ومن ثم لما تغدو في عمر الكهولة، وأخيراً حكيمة على أبواب الشيخوخة... تستحضر ثانية تلك الانتفاضات التي تثبّتها، في النهاية، جسداً. ذاتاً في العالم.. الجسد الذي يتشبّع بالإيقاع فيرقص، ويضيق ذرعاً بمكبوتاته فيتعرى حتى وإن جزئياً بظهر وصدر مكشوفين قليلاً أمام أعين القريبات في الأعراس، حتى وإن في الفراش. في وحدتها. حتى وإن في أحلامها غير الفاحشة. وجسد الأنثى الموشوم، باعتبارات العفّة والشرف العائلي والستر، والمحبوس بين جدران البيت لهذا السبب، لابد من أن تجد كوى للتنفيس كي لا يذبل وكي لا يختنق. فيما الرقص أمام المرايا، أو في الأعراس العائلية، قد يكون اختباراً لإعادة الثقة بالنفس، وتمريناً أولياً لمواجهة شرور الدنيا فيما بعد.

من مقالة (بوابة الذكريات لآسيا جبّار: لغة مهموسة وقليل من الحياء الشرقي) سبق أن نشرها الراحل سعد محمد رحيم في صحيفة العرب اللندنية